الفصل الثاني

ترجمة محمد عبده

1- دور الأعداد 1849 – 1877

عندما آذن جمال الدين أصدقاءه المصريين وتلاميذه بالرحيل عن مصر للمرة الأخيرة، قال لهم وهو يودعهم في السويس سنة 1879: «لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالمًا».[40]

كان الشيخ محمد عبده حينذاك قد ناهز الثلاثين، وصاحب جمال وتتلمذ له نحو ثمانية أعوام. وكان قد بدأ في مزاولة التعليم، ونشر كتابيه الأولين، وساهم كثيرًا في إنشاء المقالات، يعالج بها الأمور العامة في الصحف السيارة. وبدت منه كفاية ممتازة، وشغف بالعلم والتحصيل، والعناية بكل ما يمس صلاح المجموع.

كان أقدر تلاميذ جمال، وأقربهم إليه وأعطفهم على آرائه، فكان طبيعيًا – وقد اضطر جمال بحكم الظروف القاهرة إلى التنحي عن العمل الذي بدأه في مصر – أن يتجه نظره إلى الشيخ محمد عبده ليواصله ويتمه.

[40] مشاهير الشرق جـ1، ص281.

ولما استخلف في مصر خليفته هذا، خلف لها وللإسلام تراثًا لم يكن أحد يتوسم فيه مثل هذه الكفاية التامة، حتى ولا جمال الدين نفسه.

كان مجرى الإصلاح المصري، وإن نبع كالنبل من منابع جاوزت حدود البلاد، قد قدر له أن ينم فيضانه الأكمل في قنوات مصرية. فقد كان الشيخ محمد عبده مصريًّا خالصًا، انحدر من أسرة تنتمي إلى طبقة الفلاحين في الوجه البحري.[41]

في الحق أن أباه عبده بن حسن خير اللّه، انتسب إلى عائلة تركية الأصل نزلت منذ زمن في مديرية البحيرة.[42] وكانت أمه من قرية بالقرب من طنطا في مديرية الغربية، وهي من أسرة كبيرة اشتهر أن نسبها يتصل بقبيلة بني عدى، التي ينتمي إليها عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين.[43] ولكن كلتا الأسرتين نزلت أرض مصر، واستقرت بها زمنًا طويلًا طبعها بطابع الفلاحين المصريين، وميزها بخصائصهم فعاشوا على غرارهم.

مولده وطفولته (1849 – 1865)

[41] الرسالة ص9 من المقدمة.
[42] المنار ج8 — 379، تاريخ ج1 ، ص13.
[43] المنار ج8 (1905)، 379.

لسنا نعرف على التحقيق أين ولد، ولا نستطيع أن نذكر في يقين العام الذي ولد فيه، وإن كان عام 1849 (1266هـ) قد سلم به الكثيرون، فصاحب[44] الترجمة نفسه يورده في كتاباته، وقد ذكر أيضًا عامًا أسبق. [45] وكثرت الروايات في تاريخ ميلاده حتى ذكر البعض أنه ولد سنة 1842. [46]

وكان في ختام حكم محمد علي باشا (1805 – 1849)، أن فر أبوه من قريته هربًا من ظلم الحكام في مديريته، واتجه إلى مديرية الغربية، حيث تنقل في سكنه بين قرى متعددة في أعوام قليلة، واقترن في هذا العهد المضطرب بزوجه التي أعقبت له محمدًا. وبعد سنوات قليلة – وابنه ما زال في المهد – عاد مع أسرته إلى محلة نصر، واشترى قطعة من الأرض.

---

[44] انظر الرسالة ص9 ، من المقدمة وجولدزيهر ص321. وهورتن جـ13 (1915) ، ص85.

[45] انظر المنار جـ8 ، ص390 وترجمة محمد عبده لنفسه في تاريخ حـ1 ، ص16 ، فإنها تذكرة سنة 1265.

[46] يبدو كثير من الخلط في هذا الموضوع في مرائي محمد عبده التي نشرتها الصحف والمجلات كما وردت في المجلد الثالث من «تاريخ الأستاذ الإمام» ، فنجد أن عمره يذكر تارة 60 سنة (ص41) وتارة 62 سنة (ص38) أو 65 سنة (ص80).

وذكرت مجلة الضياء التي كان يصدرها الشيخ إبراهيم اليازجي ، ومجلة الهلال لصاحبها جورجي زيدان (انظر عبارتها في مشاهير الشرق (جـ1 ، ص281 — 287) ، أنه ولد عام 1258هـ - 1842م (انظر تاريخ جـ3 ، ص95 و110) ، بينما نجد روايات أخرى تذكر عام 1843 — 1842م (انظر تاريخ جـ3 ص95 و110) بينما نجد روايات أخرى تذكر عام 1843 (ص148) أو 1845 (ص9 ، وص131).

أما التاريخ الذي ذكره المنار وهو (1266 — 1849) فقد ورد أيضًا في خطاب التأبين الذي ألقاه حسن عاصم باشا صديق محمد عبده وأحد أنصاره (تاريخ جـ3 ، ص237) انظر أيضًا من 33 و 124.

والظاهر هو أن هذا التاريخ هو الذي اعتمده أصدقاء الإمام وتلاميذه.

وهنا نشأ محمد عبده نشأة صبيان القرى الصغيرة في مصر، وبرع في السباحة والفروسية ولعب السلاح،[47] وأحب حياة الريف وما تستتبعه من نشاط، حتى ألف ذلك في شيخوخته.

ومعظم ما امتاز به من الصفات في رجولته، ولا سيما تحفظه ووقاره ومؤانسته يشف عن أحسن مظاهر الحياة والعادات القروية. وإدراكه لحاجات العامة إدراكًا مشربًا بالعطف، ورغبته الملحة في إنهاض الأمة كلها، إنما هما من ثمرات حياته الريفية الأولى، عندما كان يستمع أحاديث الناس عن عهد محمد على، الذي كانت لا تزال صورته ماثلة في أذهان من هم أسن منه حيث كان الناس في مصر، كدأبهم منذ الأزمان السحيقة، ينومون بعبء ثقيل من حكم تخدع مظاهره البراقة.

ويظهر أن أبوي محمد عبده كانا على خلق عظيم، وإن لم يكن لهما حظ من العلم شأن الكثرة من العامة، ومن أوساط الناس في مصر حتى في عصرنا الحاضر. وهو يتحدث عن أبيه في الترجمة التي كتبها لنفسه – ولم يتمها لسوء الحظ – بعبارات مليئة بالاحترام العميق. ويشير إلى أن أهل القرية

[47] النار ج8، ص369.

جميعًا كانوا يجلونه كل الإجلال. [48] والظاهر أن أباه كان حينذاك قد حسنت حاله، حتى استطاع أن يحضر إلى بيته معلمًا ليعلم أصغر أنجاله القراءة والكتابة، فهيأ له بذلك فرصة التعلم التي حرم منها أبناؤه الآخرون، وإن كان مركزه الاجتماعي، فيما يظهر، لم يكن يعلو كثيرًا عن مركز صغار الملاك من الفلاحين. [49]

ولما بلغ محمد عبده العاشرة من عمره، وكان قد أحسن القراءة والكتابة، أرسله أبوه إلى حافظ للقرآن فحفظه القرآن عن ظهر قلب في مدة سنتين، وظن الناس أن نجاحه في حفظ القرآن في هذا الزمن القصير كان من أثر اهتمام الحافظ. وكان هذا أول خطوات التعليم الذي كان ميسورًا حينذاك لصبيان الأسر المشابهة لأسرة محمد عبده في مركزها الاجتماعي، فإذا طال تعلم الصبي على هذا النحو من التحصيل، كان في مقدوره أن يصبح شيخًا أو عالمًا بفروع العلوم الدينية الإسلامية، أو فقيهًا، يحصل حظًّا وافرًا من الأحكام الشرعية الكثيرة، ويحسن فهمها وتطبيقها. أما

---

[48] الرسالة (مقدمة ، ص10 — 11) تاريخ جـ1 ، ص13.

[49] انظر وصف فقر والديه في تاريخ جـ3، ص19 ، وما بعدها ، تذهب هذه الرواية إلى أن والديه كانا من الفقر ، بحيث إن بيتهما لم يكن له باب وتجعل هذا نتيجة لكرمها الحاتمي ، ويظهر أن جودهما وفقرهما بلغ كل منهما الغاية ، ولا عجب فالكرم فضيلة مثقلة بالأعباء.

المدارس التي أنشأتها الحكومة في ذلك العهد على غرار النظم الأوربية، فكانت حرمًا موقوفًا على أبناء الموظفين.

لما وضع أساس تعليم محمد عبده على هذا النحو أوفد، وهو في الثالثة عشرة من سنه إلى الجامع الأحمدي بطنطا عام 1862، ليحسن فيه حفظ القرآن وتجويده وفقًا لفنون التجويد التي هي ركن من أركان التعليم الديني. وكان أخوه لأمه مدرسًا في ذلك الجامع حينذاك وله حظ من الشهرة في القراءة والتجويد.[50]

وبعد نحو عامين قضاهما في هذا النوع من الدرس، بدأ يتلقى قواعد العربية ويتفهم أسرارها. وكان ذلك الناشئ الصغير قد صادفه الفشل في محاولاته الأولى لإتقان علوم اللغة، وكانت نظم التعليم تفرض عليه حينذاك، أن يحفظ عن ظهر قلب نصًّا من الأجرومية العربية وشرحًا عليه لأحد مشاهير النحويين.[51]

يقول محمد عبده في ترجمته لنفسه عند كلامه على طلبه للعلم: «وقد وقع لي سنة ونصف سنة لا أفهم شيئًا لرداءة طريقة التعليم، فإن المدرسين كانوا يبادئوننا

[50] المنار ج8، ص381.

[51] هذا النص هو شرح الكفراوي على الأجرومية — المنار ج8، ص381.

بإصلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها».[52]

ولما أدركه اليأس من النجاح، هرب من الجامع الأحمدي، واختفى عند أخواله مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر عليه أخوه لأمه وأرجعه إلى طنطا. وكان محمد موقنًا بأن لا نجاح له في طلب العلم، فأخذ ما كان له من ثياب ومتاع. وعاد إلى قريته معتزمًا الاشتغال بملاحظة الزراعة كما كان يشتغل الكثير من أقاربه، وعلى نية أن لا يعود إلى طلب العلم. ثم تزوج في سنة 1865 وهو في السادسة عشرة من عمره.[53]

وهنا يقول:

«فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا، وهي بعينها طريقته في الأزهر. وهو الأثر الذي يجده تسعة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل في التعليم – سبيل إلقاء ما يعرفه وما لا يعرفه، بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم. غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم

---

[52] المنار ج8، ص381.

[53] نفس المصدر ص381 – يذكر هورتن (ص88) أنه تزوج عام 1871، واعتمد في تقرير هذا على رواية تاريخ ج3، ص124. وهي رواية صحيفة تونسية لا يمكن الوثوق بصحته فهي تذكر مثلًا أن محمد عبده هرب من طنطا وتزوج في سنة 1288 – 1871 بينما تروي أنه درس على جمال ابتداء من سنة 1287 – 1870.
وفي المقال أخطاء أخرى في التواريخ وإن كانت مادته مستقاه في الأصل من رواية المنار.

أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئًا، فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم في أحلام الأطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية».[54]

ولقد أشار محمد عبده إلى هذه البداية السيئة، عندما أراد أن يبين مضار طرائق التعليم الفاسدة وسوء أثرها لطائفة من العلماء حاضرهم في تونس، فحدثهم عن التعليم ودافع بين ما دافع عنه من مسائل، عن ضرورة انتهاج طرق أصلح لتعليم النحو العربي.[55]

على أن فراره من الدرس لم يكن لينجيه مما كتب عليه. فبعد أن تزوج بأربعين يومًا، أكرهه أبوه على الرجوع إلى طنطا لأمر إرادة اللّه، ولكنه فر في الطريق واختفى عند بعض أقاربه في «كنيسة أورين».

يقول محمد عبده: «وهناك صادفت من علمني كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه، فذقت لذته واستمررت في طلبه».[56] كان هذا الرجل الذي محضه النصح الخالص، وأيقظ في نفس ذلك الشاب الراغب عن الدرس حب العلم،

---

[54] نفس المصدر ص381 – 382.

[55] تفسير سورة العصر وخطاب عام في التربية والتعليم – مصر مطبعة المنار – الطبعة الثانية (1330 – 1910) ، (ص67 – 68).

[56] تفسير سورة العصر ، ص68.

وألهب في صدره الحماس للحياة الدينية فغير بذلك صفحة حياته كلها، كان هذا الرجل الخليق بالتقدير، أحد أخوال أبيه واسمه الشيخ درويش خضر. وكان قد سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا وصل فيها غربًا إلى طرابلس، وهناك جلس إلى السيد محمد المدني،[57] وتعلم عنه طرفًا من العلوم الإسلامية، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية إحدى طرق الصوفية، وكان يحفظ بعض كتب الفقه والحديث ويحسن على وجه خاص حفظ القرآن وفهمه، وبعد أن أتم دراسته رجع إلى قريته واشتغل بما يشتغل به الناس عادة من فلح الأرض وكسب الرزق بالزراعة.

ويروي محمد عبده أنه في صبيحة الليلة التي باتها في تلك القرية، جاءه الشيخ درويش وفي يده كتاب يتناول التعاليم الخلقية وشيئًا من معارف الصوفية، التي ينتمي إليها وكثيرًا من كلامهم في آداب النفس ورياضتها على مكارم الأخلاق. وسأل محمدًا أن يقرأ له شيئًا منه، فأبى عليه ذلك؛ لأنه كان ينفر نفورًا شديدًا من القراءة وممن يشتغل بها، ورمى الكتاب بعيدًا، فتلطف الشيخ في القول وأمعن في الحلم، ولم يزل به حتى تناول الكتاب وقرأ له بضعة أسطر،

[57] المنار ج8، ص382.

فاندفع يفسر له معاني ما قرأ بعبارة واضحة تغالب إعراضه، فتغلبه وتجد طريقها إلى نفسه سهلًا ميسورًا.

وبعد قليل جاء فتيان القرية يدعون محمدًا إلى رياضتهم المعتادة، فرمى الكتاب وانصرف إليهم، وجاءه الشيخ بعد العصر بكتابه وألح عليه في قراءة شيء منه، وعاود ذلك الطلب في اليوم التالي، وقرأ له في اليوم الثالث مرة أطول، وأثار الكتاب اهتمامه حتى أخذ يقرؤه بدافع من نفسه. وكلما مر بعبارة لم يفهمها، وضع عليها علامة ليسأله عنها، ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار قليل الصبر على ما يحول بينه وبين القراءة، وعادت أحب الأشياء إليه بعد أن كان يبغضها بالأمس، وعلمه الشيخ تعاليم الصوفية وأذكارهم، ولقنه الدروس الأولى في فهم القرآن فهمًا صحيحًا، وألقى في روعه حقيقة وقعت من نفسه موقع الوحي. تلك هي: «أن المسلم الذي لا يعدل ولا يصدق ليس بمسلم حقًّا».

وبعد أن قضى محمد خمسة عشر يومًا مع ذلك الشيخ، عاد إلى دروسه في طنطا، ولكن بأي قلب عاد؟!

ولقد تغيرت نفسه تغيرًا كبيرًا واختلفت نظرته إلى الحياة، وأصبح في هذه الفترة القصيرة، وقد غلبت نزعات

التصوف على حياته الدينية. ومنذ اليوم الثامن من إقامته بدأ يذكر اللّه على طريقة بينها له الشيخ درويش.

وهنا يقول محمد عبده عن نفسه:

«وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن، فلم تمض علي بضعة أيام، إلا وقد رأيتني أطير بنفسي إلى عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقًا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرًا، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرًا، وتفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد: وهو أن أكون كامل أدب النفس،[58] ولم أجد إمامًا يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد ... فهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي».

[58] استعمل هنا اصطلاحات المتصوفة ، فالمعرفة نور قدسي يقذف في القلب ، وآداب النفس معناها الزهد والتقشف ، ومجاهدة النفس بالرياضة والعبادة على نحو يتبع فيه المريد شيخه خطوة فخطوة ، من أدنى مراتب النفس إلى أعلاها ، أي إلى النفس الكاملة — انظر ما كتبه جاردنر في مقاليه عن «طريق مسلم متصوف» في العالم الإسلامي مجلد 2.

كانت هذه التجربة فجر عهد جديد في حياة محمد عبده، فقد آثار الشيخ درويش في نفسه العناية بالتصوف، وأخذت هذه العناية تنمو رويدًا رويدًا، حتى أصبحت أهم المؤثرات في حياته.

وفي هذا العهد ظل الشيخ مرشدًا أمينًا وناصحًا حكيمًا للطالب الشاب، ولكن كان لمعلمه الثاني وأستاذه الأعظم جمال الدين، فضل إنقاذه نهائيًّا من الغرق في خيال التصوف وتوجيهه إلى ميادين العلم الواسعة، وإلى الجهود العلمية المثمرة.[59]

---

[59] يذكرنا ما ورد عن تلك الأزمة النفسية التي عاناها محمد عبده ، بما قيل من أن الكثير من متصوفي المسلمين صادفوا أزمات نفسية شبيهة بها في زمن معين من حياتهم ، وأنها وجهتهم إلى الحياة الصوفية الدينية ، وفي حياة الغزالي مثل بارز لهذا التحول ، وربما حق لنا أن نشير إلى أن محمد عبده عندما كتب مذكراته — وكان قد أصبح ذا شأن في الحياة الدينية في مصر بل ، وفي العالم الإسلامي أجمع — كان متأثرًا ، سواءً أكان شاعرًا بذلك أم غير شاعر به ، في تعليل تجاربه الأولى والأخيرة ، بما عرفه من تراجم كبار الصوفية فركزها جميعًا في أزمة واحدة معينة ، هي في الواقع نتيجة لمقدمات استغرقت زمنًا طويلًا ، وربما كان لا داعي لهذه الإشارة لولا أن بعض التراجم التي كتبها أناس لم يكونوا من بيئة محمد عبده — مع اعترافها بالتحول الحاسم الذي حدث في تفكيره في هذا الوقت ، وغير موقفه من الدرس — تعلله تعليلًا واقعيًّا وترتيب الحوادث ترتيبًا آخر. فجريدة الشرق تقول في عددها الصادر في 12 يوليه سنة 1905 ، (تاريخ ج3، ص19) ، أنه لما بلغ السابعة من عمره ، أرسله إلى كتاب في القرية فاختلف ابنه إليه مكرهًا ؛ لأنه كان يريد أن يكون فلاحًا كإخوته ، وكانت النتيجة أنه لبث بهذا الكتاب ثلاث سنين لا يحفظ مما يلقيه الفقيه حرفًا. ثم أدخله أبوه إلى الجامع الأحمدي بطنطا ، فلبث به ثلاث سنين ، ثم إلى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين ، لا يدري مما يلقن شيئًا. تقول الشرق أن محمد عبده علل ذلك بثلاثة أمور.

الأول: رغبته في أن يكون مثل أخوته فلاحًا وعدم وجود الوسائل التي ترغبه في العلم.

الثاني: اختلال نظام التدريس.

الثالث: ما اتفق عليه الطلبة من تناول الأغذية الضارة في جميع الأوقات مما يكون منه اعتلال القدرة على الدرس.

ثم تقول هذه الرواية: «فلما لم يجد الأستاذ مناصًا من إرادة أبيه خلا بنفسه واجتمع بفكره وذكائه فهان الأمر بعد ذلك عليه».

ب- طالب علم ومنصوف 1865 – 1877

بعد أن قضى محمد عبده أسبوعين في صحبة الشيخ درويش يستمع إلى نصائحه وإرشاداته، عاد في شهر أكتوبر سنة 1865 إلى معهد بطنطا، وحضر على شيخين كان كل منهما في بدء تدريسه فاغتبط إذ رأى نفسه قد أفاقت مما غشيها من سبات عقلي، وانصراف عن الدرس، وسره أنه بدأ يفهم ما يقرأ وما يسمع.

لما عرف الطلبة الآخرون عنه ذلك، التفوا حوله ليعينهم على القراءة والفهم، وبعد أشهر قليلة رغب في تلقي العلم بالجامع الأزهر، وهو المعهد المشهور بالدراسات الإسلامية في القاهرة والذي كثيرًا ما يسمى الجامعة الأزهرية.

وكذلك روى جورجي زيدان — وهو كاتب عظيم الخطر — في ترجمته لمحمد عبده «مشاهير الشرق جـ1 ، ص281» بعد أن ذكر دراسته التي لم تثمر في الكتاب ، وفي طنطا وفي الجامع الأزهر ، وبعد أن أشار إلى أن محمد عبده ينسب ذلك بالأكثر إلى فساد طريقة التعليم. يقول:

«إنه انتبه لنفسه ولم ير بدًّا من تلقي العلم ، واستنبط لنفسه أسلوبًا في المطالعة ، وأعمل فكرته في تفهم ما يقرأه ، فاستلذ العلم واستغرق في طلبه».

وهذا التعليل لتطور أحوال محمد عبده كان يبدو معقولًا ، لولا أن الأستاذ نفسه أبدى رأيه الخاص في البواعث التي حركته ، وإذا صح ما رواه ، تكون الروايات الأخرى قد أخطأت في القول بأن يقظته العقلية كانت بعد أن قضى عامين في الأزهر بدلًا من أن ترجعها إلى مدة دراسته في طنطا.

وفضلًا عن ذلك فإن هذه الروايات لم تذكر استغراقه في التصوف خلال عهد دراسته الأخير ، وهذه حقيقة لا شك فيها رواها هو عن نفسه.

وفي الجملة فإنه ليس هناك من سبب قوي يدفعنا إلى أن نعتبر ما ذكره محمد عبده في هذا الصدد عند ترجمته لنفسه غير صحيح في جوهره.

ويرجع تاريخ هذا الجامع إلى سنة 970 ميلادية، فقد أسسه جوهر قائد جند الخليفة الفاطمي أبي تميم معد «المعروف بالمعز لدين اللّه 652 – 975 ميلادية» بعد عام من فتحه لمصر.

وكان قد فرغ من بناء القاهرة عاصمة ملكه الجديدة، وعسكرت فيها جنوده، فبنى لهم المسجد وهيأه بعد عامين للصلاة، ثم زاد فيه من جاء بعده من خلفاء الفاطميين بعد أن نقلوا عاصمة ملكهم إلى القاهرة، وحبست عليه الأوقاف الكثيرة، وأنشئ في صحنه مدرسة زاهرة. وزاد كثير من الحكام في أبنية المسجد خلال قرون متعاقبة، وحبسوا عليه الأوقاف، فازدهر وذاعت شهرته في العالم الإسلامي أجمع، من الناحيتين الدينية والعلمية.

وكانت معاهد التعليم التي تزيد عن الأزهر في القدم، والتي كانت في وقت ما مهبط العلم والعرفان، قد أخذ مجدها في الزوال متأثرة بما صحب غزوة المغول للشرق من هدم وتخريب، وبما أصاب الإسلام في الغرب من تفكك وانحلال.

ووثب الأزهر حينذاك إلى ذروة المجد، واحتفظ بمكانته وأصبح خلال قرون عديدة أعظم معاهد التعليم الإسلامي، واجتذب إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وتعرف مدرسة الأزهر بالجامعة الأزهرية؛ لأن كل أوجل العلوم الإسلامية تدرس فيها؛ غير أنها ليست في الواقع جامعة بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ في الاصطلاح الغربي.

ودراسات الأزهر دينية، يتخصص الطلاب فيها وفق ميولهم العلمية. ثم يتخرجون فيه محامين شرعيين أو قضاة للمحكم الشرعية المختلفة، أو مدرسين للغة العربية أو لغيرها من العلوم التي تدرس في الأزهر، أو أئمة أو خطباء في المساجد، أو فقهاء يرتلون القرآن في المحافل الخاصة والعامة. وهم دائمًا في نظر أئمتهم ومعلموهم في الدين. وتكتسب هذه الدراسات قيمتها وخطرها من انتسابها إلى تفسير القرآن تفسيرًا صحيحًا، وإلى أحكام العلم بالعقائد والأحكام الإسلامية.

وقد أصبحت الروح التي سادت التعليم في الأزهر منذ قرون، روحًا تقليدية ليس الغرض الأول منها البحث والاستقصاء، رغبة في تقدم العلوم التي تدرس فيه، بل غايتها على الأكثر تلقين هذه العلوم كما ذكرها السلف الصالح، من دون تغيير فيها أو انحراف عما قرروه، فأغلقت بذلك، منذ أواسط القرن الثالث الهجري، أبواب البحث

المستقل في مصادر الدين أو تكوين رأي خاص فيها، وأصبحت الآثار التي خلفها ذلك العهد البعيد، هي المراجع التي يرجع إليها في الدين، ولم يبق للأجيال اللاحقة غير تقرير ما وضعه السلف وتفسير معناه.

وتبدو هذه الروح التقليدية، واضحة كل الوضوح، في تقدير العلوم المختلفة فأهمها العلوم النقلية، كعلم الكلام أو علم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه، وهي تستند جميعًا إلى الوحي الإلهي؛ ولهذا لم تخضع مصادرها للفحص والنقد، بل سلم بها كما وضعها السلف. وهذه العلوم. وكذلك علم التصوف وعلم الأخلاق تسمى علوم المقاصد، أي العلوم التي تدرس لذاتها. ويليها في المرتبة العقلية، كالنحو والصرف والعروض والبلاغ بفروعها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) والمنطق وعلم مصطلح الحديث وعلم الهيئة، الذي يدرس في الغالب لأغراض عملية، كعمل التقاويم وتحديد مواقيت الصلاة.

وتعرف هذه العلوم باسم علوم الوسائل، أي العلوم التي تدرس وسيلة لفهم العلوم النقلية.

ومنذ القرون الوسطى، كان الإهمال نصيب بعض العلوم الأخرى كالآداب والتاريخ والجغرافيا وعلوم الطبيعة

والرياضيات إلخ ... وإذا درست في الأزهر، فإنما يكون ذلك[60] على اعتبارها من المواد الثانوية.

كان الأساتذة يقرءون لطلاب قد اجتمعوا حولهم في حلقة، ويعتمدون على نص لمؤلف يعتبر عمدة في موضوع الدرس، ولكن كان يندر أن تصل أيدي الطلاب إلى ذلك النص. بل يعمد الطالب إلى حفظ شرح لأحد المتأخرين على المتن، أو حاشية على ذلك الشرح صنفها مؤلف أحدث، أو تعليقات، أو تقرير على الحاشية. ويقوم الدرس على مناقشة وتفسير المصطلحات التي استعملها المصنف.

وإذا وفق الطالب إلى حفظ أحد هذه الشروح أو الحواشي عن ظهر قلب حسب أنه فهم الموضوع.[61]

ولقد كثرت المحاولات من آن لآخر، لإصلاح مناهج الدراسة وطريقة التدريس في الأزهر، دون كبير فائدة. فمع أن محمد على باشا كان أميًّا، إلا أنه كان يقدر العلوم الأوروبية حق قدرها. وأراد أن يدخلها إلى الأزهر، فأوفد إلى باريسي بعثته العلمية الأولى عام 1828 ليدخل العلوم الأوروبية في الأزهر، على يد أعضائها الذين درسوا في فرنسا. ونقل إلى

---

[60] في الكلام على العلوم المختلفة التي تدرس في الأزهر — انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة الأزهر، وكذلك مقدمة الرسالة ص18، وهورتن ص109، وتاريخ ج3، ص254.

[61] المنار ج8، ص393 — 399.

العربية كثير من المصنفات الأوربية المختلفة، ومن الفرنسية بنوع خاص، ولكن هبت المعارضة ضد ذلك الإصلاح، وأنكرت المساعي التي بذلت لإدخال روح جديدة في ذلك المعهد العتيق.

وحوالي ذلك العهد (1827)، كان الشيخ الطنطاوي، الذي سافر فيما بعد لتدريس الأدب العربي في سان بطرسبرج، قد بدأ يدرس مقامات الحريري، وهي طائفة من المقالات نالت حظًّا من الشهرة والتقدير. وأنشئت سجعًا في القرن الثاني عشر الميلادي واشتهرت بصعوبة أسلوبها، ووفرة مفرداتها، وحريتها في التعبير عن بعض العواطف والأفكار، ولم تكن مثل هذه المواضيع تدرس في الأزهر من قبل.[62]

وقبل أن يجاور محمد عبده في الأزهر بزمن قصير. كان الخديوي إسماعيل في حماسه لصبغ البلاد بالصبغة الأوربية قد حاول أيضًا إصلاح الأزهر من جديد، وأيده في هذا الشيخ محمد العباسي المهدي. شيخ الأزهر في ذلك العهد.[63] وأدخلت

---

[62] إن التاريخ الذي اعتمدناه لمحاضرات الشيخ الطنطاوي هو الذي ذكره فولرز في مقاله عن الأزهر بدائرة المعارف الإسلامية ، وذكرت مقدمة الرسالة ، عام 1867. ويظهر أن هذا خطأ لأنه إذا كان الطنطاوي قد حاضر في التاريخ الأخير لاستطاع محمد عبده أن يحضر عليه مدفوعًا بنزعته القوية في طلب كل جديد.

ولكن محمد عبده لا يذكر اسم الشيخ طنطاوي مع أنه ذكر أسماء أساتذته الآخرين الذين درس عليهم.

[63] كان الشيخ العباسي شيخًا للأزهر من سنة 1870 إلى سنة 1882 ، ثم خلفه الشيخ الإنبابي الذي كان معارضًا للإصلاح ، وعلى هذا كان العباسي شيخًا للأزهر عندما كان محمد عبده طالبًا فيه.

انظر دائرة المعارف الإسلامية — مادة الأزهر. ومشاهير الشرق جـ2 ، ص186 — 189.

إصلاحات عديدة على مناهج الدراسة والنظم الإدارية، كان من بينها تقرير نظام الامتحان أمام مجلس من ستة أعضاء، وكان هذا أمرًا جديدًا في الأزهر، فناهضه الكثيرون مناهضة قوية، ورفع لواء المعارضة الشيخ عليش، الذي كان عالمًا قديرًا ورجعيًّا متطرفًا. ففترت حركة الإصلاح عندما دخل محمد عبده الجامع الأزهر في أوائل سنة 1866، ولو أن الشيخ حسن الطويل ظل يواصل تدريس المنطق والفلسفة.

ولم يكن في مظهر الفتى محمد عبده، ما يميزه في عيون شيوخه عن المئات من أقرانه الذين وفدوا إلى الأزهر من بلاد الريف، ولكن نشاطه الطبيعي وحدة ذكائه وانكبابه على الدرس والتحصيل، واستقلال رأيه، كل ذلك سرعان ما جعله فريدًا مميزًا بين أقرانه، وظل أربعة أعوام يقرأ دروس الأزهر المقررة، ويتابع ما يلقى فيه من محاضرات، ولكنه كان لا يطيق الصبر على مواصلة الجلوس إلى أساتذة لم يكن يفهمهم، أو لم يستطع الاستفادة من دروسهم، فكان أحيانًا ينقطع، وأحيانًا يحضر الدرس، ويقرأ في كتاب آخر يحضره معه، ومع هذا كان دائم البحث في كتب الأزهر عن أشياء لم تكن تدرس فيه.

وكان صديقه القديم وناصحه الشيخ درويش، يزوره الفينة بعد الفينة، ويغريه بدرس المنطق والرياضيات والهندسة، ولو أنه كان لا يجد هذه العلوم في الأزهر، وقد أعانه في تحصيلها الشيخ محمد البسيوني أحد العلماء في ذلك العهد، وبعد زمن قرأ المنطق والفلسفة على الشيخ حسن الطويل، الذي ذكرناه من قبل، ولكن الشيخ حسن لم يشبع تلك الرغبة القوية التي كانت تستقر في قلب محمد عبده لتحصيل شيء يفتقده دون أن يعرف أي شيء هو.

وأحس الطالب الفتى أن تعاليم الشيخ حسن لم يكن ينهض على قضايا جازمة محدودة، ولكنه كان مزيجًا من الفرض والتخمين،[64] ولم يكن فتانًا ليرضى بترك موضوع قبل أن يفهمه تمام الفهم فإذا أدرك هذا لم يقنع بما فهمه إلا إذا أيدته البراهين. [65]

وكثيرًا ما قرر فيما بعد، أن الطريقة الأزهرية في درس المصنفات العربية قد أضرت بتفكيره، وأنه حاول خلال سنوات عديدة أن يتحلل من أثر هذه الطرائق، ويمحوها من عقله، فلم يوفق كل التوفيق. [66]

---

[64] المنار جـ8 ، ص388.

[65] نفس المصدر ، ص400.

[66] نفس المصدر ، ص399.

كان منذ بدء طلبه للعلم بالأزهر، متأثرًا بالتصوف، وقد أطلق لنفسه العنان في الاستغراق فيه. [67] كان يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر،[68] ويلبس قميصًا خشنًا فوق بدنه، ويجاهد النفس بالتقشف والزهد،[69] وكان يمشي مطرقًا لا يكلم أحدًا إلا لضرورة اقتضتها صلاته بالمدرسية والطلاب. [70] وكان لكثرة الانهماك في العلم والفكر والنظر ومجاهدة النفس، يخرج عن حسه ويسبح في عالم الخيال، حيث ظن أنه كان يناجي أرواح السابقين،[71] وزاد ذلك عليه حتى ابتعد عن مخالطة الناس.

ولما زار الشيخ درويش في مصر سنة 1871، وجد الشيخ درويش أنه لا بد له من أن يستعيد محمد عبده إلى الحياة العادية الطبيعية، ونجح في ذلك بتنبيهه إلى أن لا فائدة من علمه إذا لم يكن هاديًا له ولغيره من الناس، وأنه إذا شاء أن يكون ذا نفع لإخوانه في الدين وجب عليه أن يخالطهم. ثم استصحبه الشيخ درويش. إلى المجالس العامة وفتح الكلام

---

[67] نفس المصدر ، ص386.
[68] نفس المصدر ، ص396.
[69] نفس المصدر ، ص398.
[70] نفس المصدر ، ص386.
[71] نفس المصدر ، ص396.

في الشئون المختلفة ووجه إليه الخطاب ليتكلم، وما زال به حتى أعاده رويدًا رويدًا إلى عالم الواقع.[72]

على أن الفضل الأكبر كان لجمال الدين الأفغاني. فإنه هو الذي أنقذه من غمرات التصوف، ولو أن أول آثار محمد عبده، وهي رسالة الواردات التي ظهرت عام 1874، تنم في وضوح وجلاء عن آثار دراساته وتجاربه الصوفية، كما تظهر أيضًا أثر دراساته الفلسفية التي تلقاها على جمال الدين.

ولقد ظل محمد عبده مستمسكًا بميله إلى التصوف طول حياته، وهو يذكر لنا في مقدمة الرسالة التي أسلفنا ذكرها،[73] كيف أنه شغف بالعلم والتحصيل شغفًا ملك عليه زمام نفسه، وكيف أنه جعله غايته وطلبته دون كبير فائدة، إلى أن جاء جمال الدين إلى مصر. وكان محمد عبده قد اهتدى، وهو يطلب العلم إلى شيء مما سماه «العلوم الحقيقية»، غير أنه لم يجد من يرشده في ذلك السبيل. وكلما استعان بأحد قال له: إن الاشتغال بمثل هذه الأمور يخالف للشرع أو أن رجال الدين قد حرموه.

---

[72] نفس المصدر ، ص398.

[73] طبعت بكتاب تاريخ جـ2ن ص9 — 25.

يقول محمد عبده: «وعندما تأملت في سبب ذلك رأيت أن الإنسان يكره ما يجهل»، وبينما كان في حيرته تلك، أشرقت شمس الحقيقة — يشير بذلك إلى وصول جمال الدين — واطمأنت نفسه إلى طلب العلم في نورها، فأحس أنه انتقل إلى عالم جديد أخذ يتضاءل فيه، في نظر محمد عبده، رواء الاستغراق في التصوف شيئًا فشيئًا.

كان جمال صوفيًّا عانى، أحوال المتصوفين، وقطع شوطًا طويلًا في سبيل أهل الطريق، وكان أعرف من محمد عبده بالشيء الكثير مما يعرفه المتصوفة، ولا يجيزون الكلام فيه، فاستطاع أن يقنع تلميذه الناشئ بما وصل إليه في المعرفة الصوفية، كما أقنعه بعلمه في ميدان العلم، فأنقذه من غمرات قل إن نجا منها من وقع مرة فيها.[74]

عندما تقابل محمد عبده بجمال الدين للمرة الأولى، كان التصوف موضوع الحديث، وكان قد ذهب لزيارة جمال الدين صحبة الشيخ حسن الطويل، لما جاء جمال إلى القاهرة في زيارته لها لأول مرة سنة 1869. وكان جمال يتعشى عندما وفدا عليه، وبعد العشاء تحدث إلى زائرية في تفسير القرآن،

[74] المنار، جـ8، ص397.

فبين تفسير أهل السنة لبعض الآيات ووازنه بتفسير المتصوفة.

التصوف والتفسير:

الموضوعان اللذان كانا في ذلك الوقت قد ملكا على محمد عبده، زمام نفسه وملأ شغاف قلبه؟!

كأن جمال الدين قد أدرك بفطنة المعلم العظيم ميول الطالب الناشئ ورغباته، فحاول أن يجتذبه إليه.

ولما رجع جمال الدين من الآستانة إلى القاهرة، بعد نحو عام ونصف (22مارس سنة 1871)، [75] أخذ محمد عبده يقرأ عليه في انتظام، وسرعان ما أصبح يلازمه ملازمة الظل،[76] وأخذ يدعو في حماس أقرانه من الطلاب وغيرهم للذهاب إلى بيت جمال الدين، حيث كان يقرأ لتلاميذه بعض المصنفات الإسلامية التي جر عليها الإهمال أذيال النسيان، وكان يسحر

[75] لم يتفق المؤرخون على هذا التاريخ كما اختلفت رواياتهم أيضًا في كثير من التواريخ المتصلة بحياة محمد عبده ، أما التواريخ التي أوردناها آنفًا فهي التي ذكرها براون ومشاهير الشرق لوصول جمال الدين إلى مصر في المرتين وتخللهما فترة إقامته في الأستانة. وصل في المرة الأولى عام 1285 — 1869 وألقى خطبته في الأستانة التي كانت سببًا في نفيه منها في رمضان سنة 1282 — 1880 ، وجاء مصر للمرة الثانية في غرة محرم سنة 1288 — 22 مارس سنة 1871 ، وهذه التواريخ أكثر اتفاقًا مع الحوادث السابقة ، ولكن يقول محمد عبده (المنار جـ8 ، ص 387) أنه صاحب جمال ابتداءً من غرة محرم سنة 1287 ، ويشير في مقدمة رسالة الواردات (تاريخ جـ2 ، ص9) إلى أن جمال وصل إلى مصر وبدأت صحبتهما في سنة 1290 — 1973. وربما كان المقصود بهذا ، الإشارة إلى تاريخ بدء نوع معين من الدرس تلقاه عليه كالفلسفة مثلًا. وتروى مقدمة الرسالة ص24 أن جمال جاء مصر سنة 1872 ، وربما كان بعض هذا الاضطراب راجعًا إلى استعمال التاريخين الهجري والميلادي.

[76] المنار جـ8 ، ص389.

سامعيه بعلمه الغزير، وحديثه العذب، وتعليقه الممتع على المواضيع المختلفة.

كان دائمًا جوادًا يسخو إلى غير حد في بذل كنوز حكمته إلى كل من حضر مجلسه سواءً أكان من «مريدي الحكمة»، أو لم يكن من مريديها،[77] وكانت طريقته في قراءة المصنفات العربية القديمة تختلف اختلافًا بينًا عن طريقة الأزهر.

كان يشرح معنى المسألة حتى تنجلي للأفهام، ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها على ما قرره فإذا توافق النص والشرح كان بها، وإن لم يتوافقا بين ما في النص من مواضع الضعف. وكان يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقره أو يفنده ويجزم بغيره، ثم يدلي بعد هذا برأيه في الموضوع، دون أن يكتفي بفهم الكتاب والموافقة على آراء مصنفه.[78]

وبعد أن درس جمال الدين أهم المصنفات العربية بهذه الطريقة، وبعث فيها حياة جديدة، قرأ لتلاميذه طائفة من الكتب الحديثة التي عربت في مختلف العلوم، فظهر لهم

---

[77] المنار ج8، ص390.

[78] المنار ج8، ص399 – 400، أورد قائمة بالكتب القديمة والحديثة التي قرأها في التصوف والمنطق والفلسفة والفقه والهيئة. انظر ص388 – 389. ومن أهم كتب الفلسفة التي قرأها والتي يعرفها الأوروبيون أكثر من غيرها كتاب الإشارات لابن سينا (980 – 1037).

عالم جديد أطال محمد عبده التحديق في آفاقه، ذلك هو عالم الفكر الغربي وما وصل إليه من علم حديث.

وكان لهذا العالم الجديد أثر فعال في حياة محمد عبده، لا يقل شأنًا عن منهج جمال الدين في تناول المصنفات القديمة بالنقد والتمحيص والاستقلال في الرأي.

كان جمال الدين يدرب تلاميذه على إنشاء المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية في الصحف وعلى الخطابة أيضًا. وأصبح محمد عبده بعد وقت ما خطيبًا بليغ العبارة قاطع الحجة. وبز أستاذه في ذلك؛ لأن جمال الدين مع طلاقته وقوته الخطابية، لم تكن العربية لغة طفولته كما كانت بالنسبة إلى تلميذه، ولم ينج أبدًا من آثار كانت تدل على عجمته.[79]

وقد حفظ لنا محمد عبده درسين من دروس أستاذه، نشر ملخصهما في الصحف وقت إلقائهما.[80]

أولها في «فلسفة التربية» وأزن فيه بين سلامة الحياة الخلقية وصحة التركيب الجسماني في حياة النبات والحيوان، فكما أن روح التركيب البدني، إنما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة، وينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة

[79] نفس المصدر، ص389.
[80] تاريخ جـ2، ص26 — 36.

أحدهما يفسد التركيب، ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى، كذلك روح الكمال الإنساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة ... «كالشجاعة التي هي وسط بين الجرأة والمخافة، والسخاء الذي هو وسط بين البذل والإمساك ...».

«وهكذا جميع الملكات الفاضلة الإنسانية إنما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة. وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ...».

«ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب، لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها إن اعتلت أو انحرفت عنها إلى جانب النقص والاعوجاج ...».

«والذين يقومون بأمر التربية والإرشاد وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها، هم أطباء النفوس والأرواح».

«وكما لزم للطبيب أن يكون عالمًا بعلم صحة الأبدان، كذلك ينبغي للحكيم الروحاني أن يكون عالمًا بتطيب النفوس والأرواح، وأن يعرف تاريخ أمته وغيرها من الأمم، وأن يكون مطلعًا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع

الأزمان، وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة، ليعلم أسباب أمراضها النفسية، ويقف على العلاج اللائق بكل صنف منها».

«وجهل هؤلاء الأطباء الروحانيين يبدو أثره من غير شك في أخلاق الأمة. فعدم المرشد الجاهل خير من وجوده ...».

«والقائمون بأمر الإرشاد يحصرون في قبيلين:

قبيل الخطباء والوعاظ، وقبيل الكتبة والمصنفين ومنه أرباب الجرائد».

وفي مقاله الثاني «في الصناعة»، بعد أن تكلم على أدوار الإنسان العقلية وتطوره الاجتماعي، وبين قيمة الصناعات المختلفة بالنسبة للجماعة، وما كان لها من أثر في تطور الإنسان، أخذ يدلل على ضرورة الصناعات للأفراد ومنفعتها للجماعة.

فالصناعات يتوقف بعضها على بعض، ويحتاج كل إنسان إلى الكثير منها حتى لحاجاته المادية في الحياة.

«فكيف به أن يستقل وهو محتاج إلى ثمرات جميعها يومًا بيوم، بل ساعة بساعة، فلا بد من التعاون في الأعمال، فيعتاض كل عن عمله بثمرة عمل الآخر، فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء يعمل كل عضو منه للبدن».

«فإذا علم الإنسان جميع ذلك، وضع نفسه عضوًا حقيقيًّا، وركنًا ثابتًا يقوم بأداء عمل يعود على كلية الأفراد. ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الإنساني، ويعين على انتظام الهيئة الكلية، فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن إلا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته».

على أن جمال الدين قد أعطى تلاميذه شيئًا آخر فوق العلم، وإن كان علمه في ذاته غزيرًا جزيل النفع. يقول جورجي زيدان في كلامه على النهضة الأدبية التي بعثتها تعاليم جمال الدين:

«كأن الرجل قد نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم، وإذا هم في ظلمة، وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلًا عن العلم والفلسفة، روحاحية أرتهم حالهم كما هي، إذ تمزقت عن عقولهم حجب الأوهام، فنشطوا للعمل في الكتابة وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية».[81]

كان الوقت الذي ظهرت فيه جهود جمال الدين، مناسبًا كل المناسبة لمثل تلك الجهود التي كان يبذلها لإنهاض شباب المصريين، فقد كان الخديوي إسماعيل يدخل الأفكار

[81] مشاهير الشرق جـ1 ، ص281.

الأوروبية في مصر على وجه أسرع مما ينبغي لهضمها، ولكن جهوده أدت إلى نتيجة سطحية، تلك هي أن كثيرًا من المثقفين كانوا يتوقعون إقبال البلاد على عهد من التقدم الوطني، وكانوا يظنون أنهم هيئوا للمساهمة فيه.

ومن ناحية أخرى، فإن بذخ إسماعيل كان مؤديًا من غير شك إلى التدخل الأجنبي الذي كان جمال يحذر البلاد منه، وكانت أشباح يوم الحساب المقبل تبدو ظلالها عن قرب، وإن كان ذلك اليوم نفسه لم يأت إلا بعد نفي جمال الدين من مصر.

وقد بدأ هذا التنبؤ في مقال كتبه محمد عبده، وهو أحد مقالات خمس أوردها محمد رشيد رضا في تاريخ الإمام، وكان محمد عبده قد نشرها في الصحف في ذلك العهد وفيها كلها، كم لاحظ الأستاذ م. هورتن،[82] «نفحة من حرارة الشباب المتأججة».

والمقال الذي نحن بصدده، هو الذي نشر في 3 سبتمبر سنة 1876 في جريدة الأهرام، أقدم الصحف اليومية في

[82] هورتن جـ13 ، ص88.

القاهرة، وكانت تصدر أسبوعية حينذاك.[83] وهو تقريظ للجريدة التي كانت تأسست في ذلك الوقت، ذكر فيه الشيخ الأزهري الشاب (لأن محمد عبده كان في ذلك الوقت طالبًا في الأزهر) أن مصر كانت في سالف الزمان أعظم ممالك الأرض، وأن التمدن كان فيها كهلًا حين كان عند غيرها طفلًا، وأنه نزح من مصر إلى غيرها من أمم الغرب. وبعد تقلبات كثيرة وصل إلى غايته ومنتهاه ...

«واستدار الزمان كهيئته فعاد التمدن إلى مسقط رأسه، واستقبله الديار المصرية بغاية المسرة وأكرمت مثواه، فقام يؤدي حتى خدمتها ويوفي شكر كرامتها».

«حتى أن موارد التوفيق المنتظرة في العصر الحاضر فاقت ما كان في أيام بناة الأهرام القديمة، وجريدة الأهرام ستكون خادمة هذه الحضارة الجديدة».

أما المقالات الأربعة الأخرى التي كتبها جميعًا في سنة 1876، فهي أيضًا تحمل في ثناياها طابع الأيام المثيرة التي أنشئت فيها، وكذلك تظهر تعاليم جمال الدين.

[83] ظهر هذا المقال في العدد الخامس انظر تاريخ ج2، ص36، والمقالات الأخرى في ص39 — 67. انظر التعليق عليها في مقدمة الرسالة، ص27. وهورتن ج13، ص88 — 89، وانظر وصف إنشاء جريدة الأهرام وترجمة مؤسسها ومحررها سليم نقلا بك في مشاهير الشرق ج2، ص89 — 93.

فالمقال الثاني يناقش الجانب الجوهري الضروري الذي تقوم به صناعة الكتابة في تطور الثقافة الإنسانية، ويختتمه ببيان ما للصحافة من خطر في توجيه وضبط جميع الشئون الدينية والسياسية لأمة من الأمم.

وكتب المقال الثالث في «المدبر الإنساني والمدبر العقلي».

ويعني بالمدبر الإنساني «المدبر الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الإحساسات الظاهرة والباطنة، وما له من حفظ تركيب الحيوان».

ويعني بالمدبر العقلي الروحاني «قوى الإنسان العاقلة التي ليس لها من غاية سوى كشف المعمى والتحلي بالملكات الفاضلة».

فالإنسان ينقسم إلى قسمين: «قسم أخلد إلى أرض الحيوانية ... وقسم قد ارتقى إلى ذروة الإنسانية» «وكلما قوى في فطرة الشخص جانب الإنسانية كان ميله نحو التصرفات العقلية، يأنف الظلم، ويدفع آثار الجهالة، ويأخذ بالبرهان».

إلى هنا نجد للمقال لونًا خلقيًّا فلسفيًّا يظهر تطبيقه في ختامها إذ يقول: «فمن الناس من كانت فضائله العقلية اسمًا

لا غير، يقلدون في الاعتقاد، ولا يجيزون درس العلوم الفلسفية».

«ومنهم من يتهللون لسوء أحوال البلاد، ويبتهجون إذا بشروا بتسلط أعدائهم، وما ذاك إلا من تداني الهمم، وتراكم الظلم، والوقوع في حفرة الحيوانية، والانحطاط عن درجة الإنسانية»، «وذلك بدل أن يتحدوا أمام عدوهم المشترك، وينبذوا جميع التعصبات الدينية» ثم يقول:

«إن المصريين كأخوين طال بينهما الشقاق، ومع هذا، إذا حاول أجنبي الاعتداء على أحدهما، نسيا ما بينهما من نزاع، ونصر كل منهما أخاه على ذلك العدو الأجنبي».

أما المقال الرابع فأنشأه «في العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية». وحكى فيه قصة طالب أزهري (لها شبه قوى بحالته) أخذ في درس بعض الكتب المنطقية والكلامية. ومع أن العلوم المنطقية، إنما يقصد بها تأييد العلوم الكلامية، فإن أصفياء ذلك الطالب اهتزوا لذلك واضطربوا، فحذروه من درس مثل هذه العلوم، وأوسعوا له في النصيحة، ثم أتبعوها بالوعيد، واستدعوا أباه في عجل إلى القاهرة لينقذ ابنه، فجاء الوالد ولم تقر عينه إلا بعد «أن

أحلف ابنه على القرآن أنه ما زال صادق الإيمان»، وأنه لن يشتغل بعد ذلك بمثل هذه العلوم الخطرة.

على أن هذه العلوم كانت تدرس في الجامعات الإسلامية في الشرق والغرب، «وقد قال الأكابر من محققي المسلمين كالغزالي وغيره، إنها فرض عين، وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية، خصوصًا في مثل هذه الأيام، لدحض الشبه عن الدين».

«وليت شعري إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدي الإسلام، وغذيت بلبانه من زمن يزيد عن ألف سنة، فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان وإلام نضع أصابعنا في آذاننا إذا ذكرت؟

لو أن هذا كان في عصر الحكام المتوحشين، أو أنه لم يكن بيننا وبين غيرنا من الأمم اختلاط، لالتمسنا لهم العذر في ذلك، ولكنا في عصر الخديوي إسماعيل، الذي بز كل حاكم آخر في نشر التعليم وتوفير سبل الحضارة لبلاده».

«والعلماء الذين هم روح هذه الأمة، لم يروا إلى الآن لهذه العلوم الجديدة فائدة، ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه، غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا في خلق جديد،

قد طرحتنا الأيام بديننا وشرفنا في بادية قد غصت بآساد ضارية، فإن كنا من آحاد تلك الآساد، فقد وقينا أنفسنا وديننا، وإلا فإما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا، وإما أن نبيد عن آخرنا لسوء الجهل وضلال الطريق ...».

«فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل والدول، وما الذي نقلهم عن حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء، فإذا حققنا السبب، وجب علينا أن نسارع إليه حتى نتدارك ما فات، ونستعد لخيرنا فيما هو آت. وها نحن بعد النظر لا نجد سببًا لترقيهم في الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا».

ونسمع مثل هذه النغمة الجديدة في المقال الأخير من سلسلة مقالاته هذه. فهو يبدأ ببيان أن اللغة العربية، وإن كانت عظيمة الغنى بمفرداتها، وبالرغم من أنها كانت في وقت ما أداة لإنشاء مصنفات قيمة في الطبيعيات والإلهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر العلوم والفنون، إلا أنها قد تنزلت إلى حضيض الانحطاط، فسبقت الأمم الأخرى المتكلمين بالضاد في العلوم والتربية والحضارة. وقد عرب أخيرًا بعض المصنفات الحديثة.

إلا إنه لم يوجد من يعني بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى ترجم إلى العربية كتاب «كيزو» في «تاريخ التمدن»، وينتهي المقال بذكر عبارة جمال الدين الأفغاني في تقريظ الكتاب المذكور.

يقول جمال الدين:

«لا شك في أنه قد حصل لأهل أوروبا تقدم ... وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياسًا صحيح النتيجة حتى أوصلتهم إلى هذا المطلوب، فلا بد لكل إنسان أن يبحث عن تلك المقدمات التي أنتجت سعادة أولئك الأمم حتى يستعملها في إيصال أهالي ملته ووطنه إلى مثل ما ناله غيرهم».

«وقد جمع هذا الكتاب جميع الشروط والأسباب، والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الأورباويين ... إلخ».

لقد بسطنا آراء محمد عبده التي عبر عنها في هذه المقالات في شيء من الإسهاب؛ وذلك لأنها تكشف عن الآثار التي كانت تعمل في تشكيل عقله، وكانت بعد ذلك سببًا في أن يعرفه الناس زعيمًا مجددًا في البيئة الأزهرية. وهي ترينا فوق ذلك، كيف أنه وهو بعد طالب في الأزهر، قد بكر في الاشتغال بالإصلاح العام مهتديًا بهدي جمال الدين، وكيف تقدم تفكيره منذ ذلك الوقت، وقد كان قبل سنوات قليلة

غارقًا في تأملات التصوف وخيالاته، ممعنًا في كراهيته للعالم الخارجي.

ويبدو هذا التقدم الفكري جليًّا في مصنفيه القيمين الذين نشرهما في ذلك العهد، وقد أشرنا من قبل إلى أولهما «رسالة الواردات» التي ظهرت عام 1874. وهي كما يقول الأستاذ هورتن «تظهر حماسًا لطيفًا ومواهب فلسفية»[84] وتبدو فيها آثار دراساته الأزهرية، وتجاربه الصوفية، وتظهر كذلك تعاليم جمال الدين، وبخاصة اتجاهه الفلسفي، ورغبته القوية في التحرر من أغلال التقليد.

ويحدثنا محمد عبده عن نفسه في المقدمة فيقول:

«إنه المعرض عن نحو الكلام والكلمة، المتخلي عن قيد لباس الطوائف إلى فضاء اقتناص صيد المعارف».[85]

وهو يقرر في هذه الرسالة وحدة الوجود، ويذهب مذهب فلاسفة المتصوفة في القول بأن الوجود الحق هو وجود اللّه فيقول:

---

[84] هورتن جـ12، ص85 – 86.

[85] تاريخ جـ2، ص9.

«ونحن نقول: ليس وجود إلا وجوده، ولا وصف إلا وصفه، فهو الموجود وغيره المعدوم».[86]

ويذهب هورتن إلى أن محمد عبده قد فقد حماس الشباب في كلامه على بعض المسائل مثل كلامه على صفات اللّه، وكان أقل جزمًا، وأكثر حذرًا، بل بلغت به الحيطة إلى الشك أحيانًا. ونجده يفرق في حرارة وقوة بين آراء الفلاسفة ورأى الأشعري في صفات العلم والإدراك والإرادة، ويعرض للكلام في خلق العالم، وفي الإنسان والنبوة، وفي خلود الروح.

أما كتابه الثاني المطبوع سنة 1876، فله من غير شك صبغة أخرى،[87] فهو حاشية على شرح الجلال الدوائي على متن العقائد العضدية، وهي رسالة موجزة في علم الكلام صنفها عضد الدين الإيجي المتوفي عام 1355م، وهو أحد المتكلمين من المدرسة الأشعرية الأخيرة عرض فيها لبيان الفرق بين الفرق، وقسم ما بينها من خلاف إلى ثانوي وجوهري وحاول التوسط بينها برأي معقول يقبله الجميع.

---

[86] تاريخ جـ2 ، ص13.

[87] اعتمدنا في هذا التاريخ على ما جاء في مقدمة الرسالة ، ص25.

وذكر المنار جـ8، ص492 ، قائمة بمصنفات محمد عبده جاء فيها هذا الكتاب الرابع في ترتيب مصنفات الإمام ، وهو يتلو كتاب «فلسفة الاجتماع والتاريخ» الذي هو عبارة عن محاضرات في ابن خلدون ألقاها في مدرسة دار العلوم سنة 1878. والخلاف في عامين أو ثلاثة قليل الشأن في جانب الخلاف في أي الكتابين أسبق. ونجد في رواية المنار اختلافًا أكبر إذا تقرر أن ثاني مصنفات الإمام هو رسالة في وحدة الوجود ، وهي تتناول كما ذكر المنار الكلام في مراتب الوجود وتنوعها باعتبار نظامها العام ووحدتها باعتبار آخر ، وهو بعض ما تتناوله رسالة الواردات.

وكان الإيجي ممن يعتمدون على العقل في زمنه، وقد صاغ أحكامه في أسلوب موجز معتدل، فقدر الناس كتابه زمنًا طويلًا.

كان هذا هو الموضوع الذي اختاره الشيخ محمد عبده، الذي كان منذ عامين فقط، غارقًا في بيداء التصوف!

وإذا كان هذا الاختيار وحده كفيلًا ببيان تحوله الفكري، فقد كانت آراؤه في الموضوع أيضًا أكثر دلالة على ذلك. فهو يبدأ رسالته بالكلام على حديث مشهور، (لا يسلم بصحته الغربيون)، وهو ما نسب إلى الرسول من أنه قال: «ستفترق أمتي ثلاثًا وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة».

وقد استنتج الشيخ عبده من هذا، أن المسلمين من مختلف الفرق، يجب عليهم أن يأخذوا بأكبر قسط من التسامح بإزاء مخالفيهم، فإن فرقة لا تستطيع أن تقطع بانتسابها إلى الفرقة الناجية، وهو يستنتج أيضًا نتيجة أخرى، هي أعظم شأنًا، وذلك أن العقل وحدة هو الذي يهدينا إلى العقيدة الصحيحة.[88]

كان محمد عبده في هذه السنوات التي كانت تنمي مداركه. وتزيد علمه، وتوسع مدى نظره وعنايته بالشئون

[88] مقدمة الرسالة ، ص25.

التي بسطنا القول فيها، ما زال متصلًا بالأزهر مواصلًا فيه دراسته، وكانت تعتمد في الأكثر على قراءة الكتب في مكتبة الجامع دون حضور الدروس؛ وذلك لأن الشيوخ كانت قد أوغرت صدورهم، واشتدت حفيظتهم على محمد عبده وجمال الدين. وبعض هذه الموجدة يرجع إلى كراهيتهم لدرس الفلسفة التي كان جمال الدين يبعثها من جديد، وبعضها إلى نزعته التجديدية على وجه عام. على أنه يبدو أنه كان للغيرة أيضًا شأن كبير، فإن محمد عبده وغيره من الطلاب كانوا على الأرجح يهملون دروسهم في الأزهر، ويتغيبون عنها ليقرءوا على جمال الدين.

هذا إلى أن محمد عبده لم يقنع بالاستفادة وحده من طريقة جمال الدين في الدرس، بل حاول نشر روح الإصلاح بين الطلاب الذين لجئوا إليه ليعاونهم في دروسهم، فقرأ لهم طائفة من الكتب العالية في الكلام، وكانت لا تقرأ في الأزهر. نذكر منها على سبيل المثال شرح التفتازاني (المتوفي عام 1389) على العقائد النسفية، (توفي النسفي عام 1142) وبينها وبين آراء المعتزلة بعض التشابه، فوشى به بعض الطلاب إلى الشيخ عليش وكان رأس المتحرجين، ونقلوا إليه أن محمد عبده يحيى مذهب المعتزلة، فاستدعاه ليحاسبه على ذلك، وكان أكبر ما أغضبه أن يجرأ طالب على

قراءة كتب صعبة، لم يعنَ أحد من شيوخ الأزهر بقراءتها. فلما جاءه محمد عبده قال له الشيخ عليش: «بلغني أنك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية!؟

قال: إذا كنت أترك تقليد الأشعري، فلماذا أقلد المعتزلي؟ إذن أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل.[89]

لم تكن هذه الإجابة لتكسب الطالب الشاب عطف الشيخ عليش، وكان لهذه الحادثة دوى في الأزهر، ثم أصبحت تكأة لخوض بعض المتخرجين في دين كل من جمال الدين والشيخ محمد عبده، وكاد يترتب عليها حرمان الأخير من الحصول على شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الأزهر، فإنه عندما عرض نفسه على مجلس الامتحان في مايو سنة 1877، رأى أغلب الممتحنين يعادونه على الغيب، وقد أجمعوا أمرهم على أن لا يمنحوه درجة ما في العلم، ولكنه أحسن الجواب إحسانًا منقطع النظير، فتدخل في الأمر الشيخ محمد العباسي، شيخ الأزهر لعهده، وكان من حزب الإصلاح، فلم يستطع الشيوخ إسقاطه، واتفقوا على منحه الدرجة الثانية بدلًا من الأولى التي كان يرى الشيخ العباسي أن يستحقها.[90]

---

[89] المنار ج8، ص391.

[90] المنار ج8، ص393.

ولما حصل محمد عبده على درجة العالمية، انتهت مدة دراسته، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الجامع الأزهر مدرسًا، بعد أن كان فيه طالبًا. ولم تنته أيام طلبه للعلم إلا من الناحية الشكلية فقط، إذ ظل يطلب العلم إلى آخر أيامه، وهو يقول: «إنني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم».[91]

وبهذه الروح أقبل الشيخ محمد عبده على التدريس في الأزهر، وكان انكبابه على طلب العلم، وشغفه بالدرس والتحصيل، قد هيأه للنهوض بهذا الأمر.

[91] المنار ج8، ص393.